

# لبنانية متفائلة في عالم يغص بالشقاء



## فاطمة الحاج

### فاروق يوسف كاتب عراقي

حكما رأيت واحدة من لوحات كلود مونية التي يصور من خلالها الحدائق المائية شعرت بعظمة الرسم. أهو عملية خلق أم إعادة خلق؟ يترك مونيه متلقيله حائراً. فالرسلام اجتهد بصريا وتقنيا ليكون سيد موقفه. فهو رأى غير أنه في الوقت نفسه أعاد خلق ما رأه. حدث استثنائي في تاريخ الرسم لا يمكن وصفه. ذلك ما ستعى رسامون أتوا بعد مونيه إلى أن يتعلموه باعتباره درس

تجربة اللبنانية فاطمة الحاج يمكن النظر إليها في ذلك الإطار. كان صعبا عليها أن تخرج من دائرة المتعة التي صنعها مونيه. ولم تغادر وقد اكتشـفتّ الرسم باعتباره "موسيقى داخلية".

#### لقاء في المنطقة الحرجة

وإذ تعرفت على رسوم اللبناني شفيق عبود الذي سبقها في التعرف على مونيه فإنها صارت على يقين بأنها ستخرج بنتائج شـخصية. وهذا ما حدث فعلاً. لقد عمل عبود متأثرا بمدرسة باريس علىٰ أن يصل إلىٰ نتائج تجريدية خالصة مستفيدا من كثافة السطح لدى مونيه وتعدد طبقاته. أما فاطمة الحاج فقد ظلت محافظة على صلة بالطبيعة تحعلها قريسة دائما من المشساهد التي صورها الرسام الانطباعي متأثرا بحساسية معلمه البريطاني وليام تورنر.



الكائنات التي تصدر عنها أصوات بعيدة، تلاحقها الحاج، تشم روائحها بحثا عن العطر الفريد الذي يناسبها. ما تفعله الحاج حين ترسم يفسر ظهور صور للبشر على سطوح عدد من لوحاتها

رقيقة وعذبة وشنفافة رسوم الحاج غير أنها في الوقت نفسه عميقــة وغامضة. هي رســامة مخلصة للطبيعة غير أنها تسعىٰ إلىٰ النظر إلىٰ

الطبيعة باعتبارها مصدرا لممتلكاتها الشخصية. فهي ترسم الطبيعة لتستولي عليها وتطل من خلالها على

عالمها الشّخصي. لا يكفي الرسـم بمتعـة هدفا لها بل إنها ترنو بعينيها إلى مناطق تنقل من خلالها دهشة اللقاء بالطبيعة الساحرة إلى عيني المتلقي فيكون التلقي هو الآخر عمليةً ممتعة. الرسامة والمتلقي يلتقيان عند نقطة يشكل سحر الرسم مركزها. تلتقي الحاج متلقيها في منطقة حرجة تكون الطبيعة فيها مصدر إلهام بصري داخل الرسم وخارجه. بمعنى أنها تحث المتلقى على التفكير بالطبيعة بطريقة مختلفة.

#### اللون غابتها

ولدت عام 1953 بالوردانية الشـوف. بدأت دراســة الرســم في كليــة الفنون . الحميلة ببيروت، ثـم أكملتها فـي لينينغــراد وحازت عام 1985 على جائزةً بيكاسو بمدريد وكانت قد انتقلت إلى

تقول "لم أخطط يوما لدراستي. كنت أهوى العلوم الطبيعية واعتقدت أننى ذاهبة نحو الطب ولكن الإمكانات الماديــة المتواضعــة لأهلــى حدت من طموحي في هـذا الاتجاه". ذلَّك اعتراف ستكون له قيمته على مستوى الكثيف عن أسباب نزعة الفنانة الطبيعية. وفي ذلك يمكن القول إن الحاج تقف قريبا من المزاج الفرنسي في الرسم فما الذي تعلمته من مرحلة دراستها السوفييتية؟ لقد تعلمت الحرفة والانضباط. وهما

ما لم تتمكن من تعلمهما أثناء دراستها في لبنان في ظل الفوضيي التي مهدت للحرب اللبنانية. ومنذ أن تعرفت الحاج علىٰ الحياة في مرسـم خــاص بها وقد حدث ذلك في وقت مبكر من دراستها عُرفــت بغــزارة إنتاجها وهو ما يســر لها إقامة معارض كثيرة في مدن عربية وعالمية ربما كانت أهمها تلك المعارض التي أقامتها في صالة كلود ليمان

تنتمى الرسامة إلىٰ القلـة المرحة المتفائلة التي يشكل وجودها كسرا للكآبة التي يعانى منها الرسم في العالم العربى بسبب سوء فهم وقع فيه الرسسامون حين ظنوا أن المرح يسسيء إلىٰ موقفهم من الحياة ويقدمهم بطريقة

في النظر إلى رسوم الحاج هناك الكثير من الشعور بأن الحياة جميلة وممكنة وقابلة للتجدد. تعبّر الفنانة عن

ذلك التجدد من خلال إشراقة لونية تتجدد مع كل عمل من أعمالها. لقد تعرفت على اللون من خلال شعفها بأعمال الانطباعيين الفرنسيين وبالأخص رسوم كلود مونيه في مرحلته الأخيرة حين قام برستم لوحاته الكبيرة التي

بقدر ما سحرتها تجربت مونيه اللونية. وهي تجربة يمكن اعتبارها التمهيد الأكثر تماسكا للفن التجريدي. كان اللون هو الهبة الطبيعية الّتي رغبت في الاستيلاء عليها. ذلك ما نجحت في تحقيقه.

حين أقول الطبيعة إنما أقصد بحيرة منه. ذلك الحزء اللذي تحاول الرسامة من خلاله أن تذكر بالطبيعة

في مواجهة لوحات الحاج يمكنك أن تزعم أنك ترى الطبيعة ولا تراها. الفتنة التي يشعر بها المرء هي فتنة الرسيم وهو يستدرج مواقع الجمال في مشبهد يتم تذكره ولا يُرى. إنه المشهد العصبي على النقل بسبب ارتباطه بطريقة تلقيه من قبل الرسسامة. بمعنى أن الرسسامة تجري تغيرات على المشهد داخل مخبلتها وهو ما يؤهلها للقول إنها اخترعت كل شىسىء. كل ذلك ينطوي على سر هـو أن الحـاج ترسـم الطبيعة بمزاج أنثوي.

#### بمزاج أنثوي ساحر

"هــل تــرى بســبب ذلــك المزاج شيئا مختلفا؟" ذلك ما يحدث غالبا يسبب اختلاف المعانى. فالمرأة لا تمر بالطبيعة بطريقة سطحية. إنها تنصت إلى أصواتها كما لـو أنها تلاحـق الكائنات التي تصدر عنها تلك الأصوات وهي تشم روائحها بحثا عن العطر الفريد

صور من خلالها الزهور المائية. لم تكن الانطباعية هي ضالتها

تأثيراتها. ذلك مؤكد بالنسبة لفاطمة الحاج. فالطبيعة غالبا ما لا تظهر بشكل مباشر في لوحاتها. وحين ترسم مشهدا طبيعيا فإنها تكتفى باعتبارها المصدر الصامت للإلهام.

الـذي بناسيها. ما تفعله الحاج حين ترسم هو شيء من ذلك القبيل. وهو ما يفسس ظهور صور للبشس علئ سطوح عدد من لوحاتها. وليس صحيحا القول إن تلك الصور إنما تشيير إلى تحول الرسامة عن الطبيعة. إنهم نتاج صلة عميقة عبرت عنها الرسيامة ذات مرة

الأكثر أمنا. هي التي تسحب مني الطاقة السلبية التي تنتابني من حزن وتعب وغضب". هـــدًّا ما كتبتهً الحاج في دليل معرضها الأخير "وهيك كانت الأيام" الذي أقامته في الدوحة وهو المعرض

الذي لم يره الجمهور مباشسرة بسبب أزمة كورونا.

أجابت الحاج على سوؤال يتعلق بروح التفاؤل التي تسـود لوحاتها في عالم يغص بالألم والشقاء والقسوة بسبب ما يعيشه من حروب. ولكنها في الوقت نفسه لخصت تفاصيل علاقتها بالطبيعة وهي التي تحن إلىٰ حدائق المدن التي تغادرها كما حدث لها مع

9 0029

.. الفنانة هنا تكشف عن أن الطبيعة لــم تشــكل بالنسبة لها مصــدر إلهام بصري فحسب بل هي أيضا مصدر علاج روحي. وهـي حين تنقل تجربتها خصية إلى المتلقى إنما ترغب في أن يتعلم منها طرقا في النفاذ إلى الطبيعة لتكون سندا له من أجل أن يكون إيجابيا في التعامل مع تحولات



الحاج رسامة مخلصة للطبيعة، غير أنها تسعى إلى النظر إلى الطبيعة باعتبارها مصدرا لممتلكاتها الشخصية. فهي ترسمها لتستولى عليها وتطل من خلالها على عالمها الشخصي

تضيف الفنانة "تظهر لوحاتي وكأننسي أعيش في عالم ملؤه السعادة. ولكن الحقيقة أنَّ ارتقائي مع الطبيعة جعلني أرى الأمور في حجمها الطبيعى. وفي بعض الأحيان أرى كم هي صغيرة مقارنة مع ما حولها من طاقات إيجابية". في كلّ لوحة من لوحاتها تفتح الحاج حدائقها لليائسين والمعذبين والعشاق المهجورين لكى يتعلموا الدرس الخالد من الطبيعة. التفاؤل الذي يحمله التجدد معه لكى تستمر الحياة.





من خلال أحد معارضها وهو "موسيقي

فهى تؤام روحى، معهــا اتعلم وارتقى.

تتغير الأماكن وروحها واحدة، تعطيك

الأمان بتواضعها ريما وريما بالتعجب

من عظمتها. ولكن الأكيد أنها الحضن

"بساطة الطبيعة تجعلني ألجأ إليها





